

الهوية والاندماج الاجتماعي في المنطقة العربية: جدلية الصراع والتكيف في ظل التحولات الراهنة

Identity and social integration in the Arab region: Dialectical conflict and adaptation in the light of the current transformations

الدكتورة نورة بلعدي

دكتوراه /مدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية

تاريخ الإستلام: 2019/06/09 تاريخ القبول: 2019/09/29 تاريخ النشر: 2019/09/30

ملخص

برزت أزمة الهوية بشكل جديد بعد الحراك الذي عرفته عديد الدول العربية، حيث تصاعدت الأصوات المنادية بالتعددية الهوياتية من منطلق تقسيم ديني، مذهبي، طائفي.. الخ. لتتحول بذلك المنطقة العربية، إلى أكثر المناطق صراعا وانقسامًا بالرغم من محاولات طويلة لبناء مشروع وطني. يستدعي الأمر العمل على تحقيق الاندماج الاجتماعي وإعادة احتواء كل التكوينات المختلفة للمجتمعات العربية.

الكلمات المفتاحية: الهوية؛ الاندماج الاجتماعي؛ الصراع؛ الحراك العربي.

Abstract

The crisis of identity emerged in a new way after the movement witnessed by many Arab countries, where voices appealed to the pluralism of identity from a religious, doctrinal, and sectarian etc. The Arab region then has changed to one of the most conflicted and divided region, despite the extended attempts striving to create a national project. Which requires to work for realizing the social integration and contain again all the different formations of the Arab societies.

Keywords: identity; Social integration; conflict; Arab movement.

مقدمة:

لقد ارتبطت المجتمعات العربية بركائز تاريخية مشتركة شكلت لها هوية إسلامية عربية واحدة، غير أن الطابع القبلي والإثني، وتعدد التكوين الاجتماعي والثقافي، وحمية الصراعات التاريخية والاستعمارية التي نشأت فيها، شكل صعوبة في تحديد معالم واضحة لهويتها على مستوى كل دولة، فأصبح الجدل قائما بين الولاء للهوية أم الولاء للوطن.

كان هدف سياسات الدول العربية على اختلافها تحقيق التآلف والوحدة الوطنية وتجاوز الصراعات والخلافات، وصناعة مناخ للاندماج الاجتماعي، غير أن هذا كان دائما مرهونا بالواقع العربي الذي يتميز بالاستقرار وطبيعة السياسات المتبعة من طرف الحكومات، ما جعل مسألة التعدد الهوياتي في المنطقة العربية أكثر تعقدا وتشكل أزمة وطنية تهدد قيام استمرار البناء الوطني، وتصبح من عملية الاندماج الاجتماعي.

خاصة ضمن جملة التحولات التي عرفت العديد من الدول العربية، والتي وصفت بالتحول نحو الديمقراطية، غير أن تبعاتها لم توحى إلى هذا، بقدر ما توحى إلى أزمة هوية و صراع داخلي، أفضى إلى غياب قيم المواطنة الصالحة، وأدى بالشعوب العربية إلى واقع صعب يسوده الاستقرار والأمن و تردي كل مستويات الحياة

وانطلاقا من هذا نطرح الإشكالية التالية:

كيف يمكن تجاوز الصراع الهوياتي في المنطقة العربية و تحقيق بيئة لاندماج اجتماعي في ظل التحولات الراهنة في المنطقة وما انجر عنها من أوضاع تشجع على الصراع و التطرف باسم الهوية؟

وتهدف دراسة هذا الموضوع إلى :

- التعريف بمفهوم الهوية و الصراع و الاندماج الاجتماعي.
- استعراض واقع الهوية في الوطن العربي كأزمة و كنتيجة للحراك العربي.
- محاولة فهم الصراع القائم و الوقوف عند حقيقة فشل الدول الوطنية في بناء مشروعها الوطني.
- تقديم بعض الاقتراحات لتجاوز الصراع الهوياتي.
- وبغية الإجابة على الإشكالية التي انطلقنا منها، قمنا باعتماد تقسيم الورقة البحثية إلى ثلاثة أجزاء رئيسية:

أولاً: الإطار المفاهيمي لـ: الهوية، الاندماج الاجتماعي، الصراع

1- الهوية

2- الاندماج الاجتماعي

3- الصراع

ثانياً: الهوية في المنطقة العربية، الواقع والتحديات

1- ملامح تصدع الهوية في المنطقة العربية

2- الصراع الهوياتي والحراك العربي

3- الهوية وظاهرة التطرف

ثالثاً: سبل تحقيق وتفعيل الاندماج الاجتماعي في المنطقة العربية وتجاوز الصراع الهوياتي

1- ضرورة التكيف والاندماج الاجتماعي

2- خيار المواطنة على الصراع.

أولاً: الإطار المفاهيمي لـ: الهوية، الاندماج الاجتماعي، الصراع

يحكم الموضوع ثلاثة مفاهيم مركزية هي: الهوية، الاندماج الاجتماعي والصراع، لذلك نرى من الأهمية تحديدها بغية حسن توظيفها منهجياً في متن الموضوع.

1. الهوية:

يتحرك موضوع الهوية ضمن حقل ألغام شائك وشديد الحساسية، لأنه صعب المعالجة حيث تلتقي السوسولوجيا، السيكلوجيا، الانترولوجيا، الايدولوجيا والسياسة... الخ، بالإضافة إلى التقاطع بين الفردي والجماعي، بين المتعدد والواحد، بين الثبات والتغير، بين الاتصال والانفصال. وقد ذاع مفهوم الهوية عالمياً وعربياً منذ ستينات القرن المنصرم، ومع صعود القومي والثوري في العالم، نتيجة للصراع الدولي أو الثقافي منذ هذا التاريخ، واهتمام العديد من المجالات العلمية بدراسته، حتى يصح في ذلك قول المؤرخ "ألفرد كروسر (Alfred Grosser) القليل من المفاهيم هي التي حظيت بالتضخيم والاهتمام الذي عرفه مفهوم الهوية، حيث أصبحت الهوية شعاراً، وأصبح بديهاً أن يحل كل الإشكاليات المطروحة¹.

فصرنا نسمع عن خطاب الهوية، أي تلك الخطابات التي تقوم في أسسها الفكرية على تصور خاص للهوية، يمكن التمثيل لها بالتيارات القطرية والقومية والوحدوية والإسلامية، كما نسمع عن سياسات الهوية، أي السياسات التي تمثل الهوية مصدراً لشرعيتها، وسنداً لها، كحقوق الأقليات في تقرير مصيرها أو الصراعات الأهلية، وسلطات الحكم الذاتي وغيرها.

¹ هاني نسيبة، مفهوم الهوية بين الثبات والتحول، منتديات اليراع الأدبية عبر الموقع:

www.alyara3.com/yara3vb/show_thread.php

تم تصفح الموقع بتاريخ (2015/05/15)

المدلول اللغوي للهوية: مفهوم الهوية من ناحية الدلالة اللغوية هو كلمة مركبة من ضمير الغائب "هو"، مضاف إليه "ياء" التي تتعلق بوجود الشيء المعني كما هو في الواقع بخصائصه ومميزاته التي يعرف بها¹.

وهو مفهوم مشتق من اللاتينية، ويعني الشيء نفسه، أو الشيء الذي هو ما عليه، على نحو يجعله مباينا لما يمكن أن يكون عليه شيء آخر، وفي اللغة الفرنسية مشتقة من المصطلح اللاتيني (edem)، التي تطلق على الأشياء أو الكائنات المتشابهة أو المتماثلة مع الاحتفاظ في نفس الوقت بما يميزها . وتستعمل كلمة هوية في الأدبيات المعاصرة لأداء معنى كلمة تعبر عن خاصية المطابقة، مطابقة الشيء لنفسه، أو مطابقة لمثله، وفي المعاجم الحديثة لا تخرج عن هذا المضمون، فالهوية هي حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية، والتي تميزه عن غيره، وتسمى أيضا وحدة الذات².

المدلول الاصطلاحي للهوية: الهوية كمفهوم تناوله العديد من الباحثين في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية، واختلفت مفاهيمه وتعريفه باختلاف هذه الاتجاهات، فكل اتجاه حاول إعطاء تعريفا خاصا به، فإذا كان علم النفس يعطي له جانبا مرضيا كما هو الحال عند (فرويد) في ضياع الهوية عن المستيريا، و علم النفس الاجتماعي يعتبر الهوية عامل من عوامل الشخصية، فإن علم الاجتماع ينتقل من دراسة الهوية إلى وحدة التحليل الكلية للفرد متعدد الانتماءات، لأن الفرد المتعدد أصبح منتج مجالات التفاعل المتعددة والمتنوعة وحتى

¹ لمياء صالح السويلم، ومحمد السيد، الهوية وإشكالاتها، عبر الموقع:

www.Lahaonline.com/index-livedialouge-php

تم تصفح الموقع بتاريخ (2015/05/15).

² Petit robert, dictionnaire alphabétique et ethnologique de la langue française (paris, paris édition, 1978) p956.

المتناقضة، وبالتالي الانسجام في هذه الوحدة لا يأتي من خارج الفرد (خارج الهوية)، وإنما يأتي من خلال قدرة الفرد على اختيار المعاني والتفاعلات التي تحقق له هذه الوحدة وهذا الانسجام في الذات¹.

وعرفت الهوية أيضا على أنها الشفرة (code) التي يمكن للفرد أن يعرف نفسه في علاقاته بالجماعة الاجتماعية والثقافية التي ينتمي إليها، وعن طريقها يتعرف عليه باعتباره منتبها إلى تلك الجماعة².

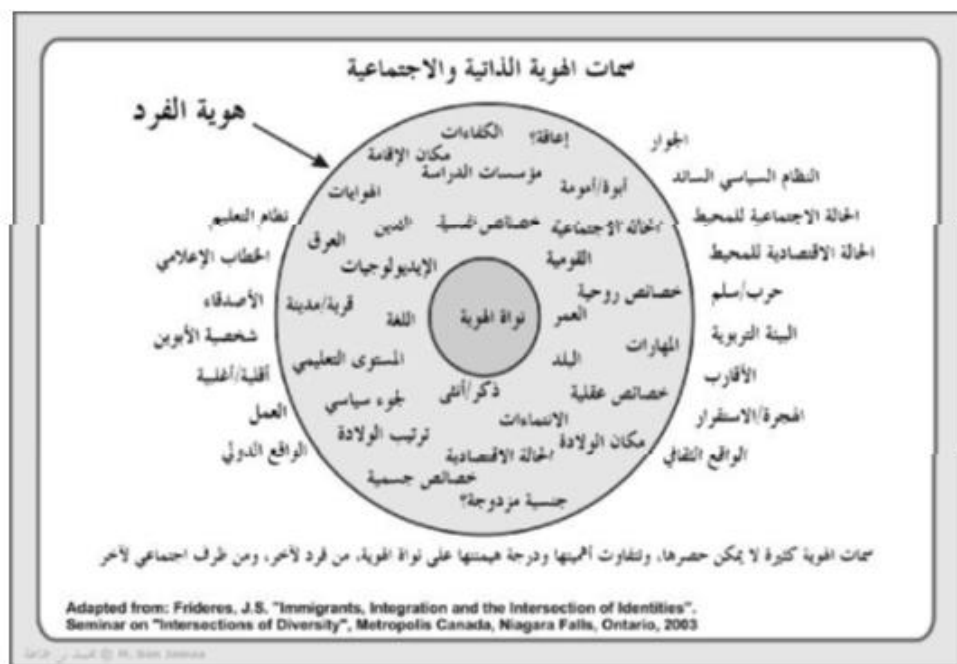
تأسيسا على المقاربة الفلسفية، تعتبر الهوية عن حقيقة الشيء المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية التي تميزه عن غيره، كما تعبر عن خاصية مطابقة الشيء لنفسه أو مثيله، وعليه الهوية لأي شعب هي القدر الثابت والجوهري والمشارك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارته عن غيرها من الحضارات. ويعرفها المفكر (إليكس ميكشلي) (M.alex) على أنها منظومة متكاملة من المعطيات المادية والمعنوية والنفسية والاجتماعية التي تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي، وتتميز بوحدها التي تتجسد في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها³. وعليه تكون الهوية بهذا وحدة من المشاعر الداخلية التي تتمثل في وحدة من العناصر النفسية والاجتماعية والمادية التي تجعل الفرد يتميز عما سواه بوحده الذاتية.

¹ محمد المهدي بن عيسى و إيناس بوسحلة، تجاوز الإعاقة الحركية بن آليات الدمج و تكوين الهوية (دراسة ميدانية بولاية تبسة)، مداخلة بالملتقى الدولي الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة ورقلة، الجزائر، 27,28,29 فيفري 2010، ص9.

² عبد الله رشاد الشامي، إشكالية الهوية، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1997)، ص8.

³ سعيد اسماعيل علي، الهوية و التعليم، (القاهرة، عالم الكتب للنشر و التوزيع، 2005) ص 27.

شكل رقم 1: سمات الهوية الذاتية و الاجتماعية



¹ Rummens, J. ,“Canadian Identities: An Interdisciplinary Overview of Canadian Research on Identity”, paper presented to Canadian Heritage (Multiculturalism), Ottawa, 2000, p22.

من خلال هذه التعاريف نستنتج:

- أن الهوية معطى اجتماعي يقوم على مبدأ التطابق والانسجام، وتحمل دلالات التنوع والتكامل والاختلاف، وهي تركز على الشعور بالانتماء والمحلية، وتظهر ملازمة للثقافة الخاصة، في حدود ملامحها الأصلية والأهلية التي تشكل الهوية الجماعية، أي الهوية القائمة على الإرث الثقافي والسلالة المشتركة.
- الهوية نتاج لسيورة تاريخية وتفاعلات اجتماعية تتم في مجال اجتماعي معين وهذه التفاعلات تتولد منها معاني وقيم وخبرات مشتركة بين الأفراد والجماعات لتعطي في نهاية الأمر خصوصيات للأفراد والجماعات.
- الهوية ترتبط بالوجود، الذات، والتراث الاجتماعي و الهوية الاجتماعية والثقافية، والهوية الوطنية، والمواطنة الحضارية، بمعنى أن الهوية هي مجموع هويات جزئية، تطرح على مستوى الأفراد، أو على مستوى المجتمعات (الشعوب و الأمم).
- تحتوي الهوية مجموعة من السمات المتكونة عبر الزمن تحكمها الأحداث والمعطيات الاجتماعية والتي تتميز بعدم الثبات والتجدد، ما يعني أن الهوية هي نتاج تراكم ما يعيشه الفرد، المجتمع، الشعوب والدول، ما يعني أن الهوية في تجلياتها الدينية أو العرقية أو الثقافية لا يمكن فهمها إلا في ضوء التاريخ و أحداثه.

2. الاندماج الاجتماعي:

ورد في لسان العرب لابن منظور فعلٌ " دَمَجَ يَدْمُجُ دُمُوجًا"، بمعنى " دخل في الشيء واستحكم فيه، يقال مثلاً " اندمج الشيء وأدمج"، أي " دخل في الشيء واستحكم فيه"¹.

¹ انظر، ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، الجزء 2 (لبنان، دار صادر) ص 452.

وترجع معاجم العلوم الاجتماعية الأصل " الإتيولوجي Etymologique "لمصطلح "اندماج" إلى اللغة اللاتينية القديمة، أي Integrare ، في إشارة إلى العمل أو التأثير الناجمين عن عملية الدمج أو الاندماج، وإذا كان المقصود بالاندماج لغة " الاستحكام "و"الاستواء"، و إلى حد ما " التقويم "فهو يعني اجتماعيا النشاط الذي يروم " تكوين مجموع أو كل " Constituer un tout، أو " تكملة كل بعناصر ناقصة"¹.

وهو ما ينطبق على الأشياء، كما يسري على المجموعات البشرية، والأشخاص الاعتبارية مثل الدول، أما سوسيولوجيا، فيقصد بالاندماج " السيورة الإثنولوجية التي تمكن شخصا أو مجموعة من الأشخاص من التقارب والتحول إلى أعضاء في مجموعة أكبر وأوسع، عبر تبني قيم نظامها الاجتماعي².

لذلك، يستلزم الاندماج شرطين، هما: إرادة الإنسان وسعيه الشخصي للاندماج والتكيف، أي التعبير الطوعي عن " اندماجه Intégrabilité "، ثم القدرة الاندماجية للمجتمع عبر احترام اختلاف الأشخاص وتمييزاتهم وقواعده³.

يتخذ مفهوم الاندماج الاجتماعي في هذا الموضوع معنى السيورة Processus التي تمكن الأفراد في الدول العربية من الانصهار في مجتمعاتهم، أفقيا أي بطريقة متساوية في تمثل قيمها، وعاداتها، وأنماط عيشها، وعموديا باكتساب هوية سياسية تعزز انتسابهم لمؤسسة الدولة، وتوطد ولاءهم لها، ويتعزز الاندماج الاجتماع من خلال الشعور بالانتماء الذي هو شعور

¹ <http://www.toupie.org/Dictionnaire/Integration.Htm>, accessed on 16/05/2015.

² Ibid.

³ Ibid.

قوي يحركه دافع قوي يقهر من خلاله انفصاليته وعزله عن الآخرين للتوحد مع كيان يشعر بأنه أكبر وأشمل، ويبحث عن الأمان لتحقيق ذاته مع الآخرين ويكون مقبولا عندهم.

3. الصراع:

يتميز الصراع بصعوبة تحديده نتيجة لكونه أحيانا صراع فردي ونفسي، وأحيانا اجتماعي وأحيانا أخرى تنظيمي وسياسي، ويتعدى ذلك إلى صراعات دولية وإيديولوجية، عرقية ودينية وعقائدية، تمتد جذورها إلى ثوابت متأصلة في التكوين و البناء الاجتماعي والثقافي في أطراف الصراع، التي تكون بين الأفراد أو بين الجماعات داخل المجتمع الواحد، أو بين الأمم والمجتمعات، تعتمد على القيم والتقاليد التي ينشأ عليها أطراف الصراع سلوكياتهم وأفعالهم و استراتيجياتهم.

المدلول اللغوي للصراع:

هي كلمة لاتينية يقصد بها تحقيق هدف معين لا يمكن أن يصل أن يصل أحد إليه سوى أحد المتنافسين ويقابلها بالفرنسية (conflit) والتي تعني التضامن معا باستخدام القوة، و هي تدل على عدم الاتفاق و التنافر أو التعارض أو الخلاف، وبالعربية هناك بعض الكتابات تترجم (conflit) بالصراع وبعضها بالنزاع. و تعرف دائرة المعارف الأمريكية الصراع بأنه عادة ما يشير إلى "حالة من عدم الارتياح أو الضغط النفسي الناتج عن التعارض أو عدم التوافق بين رغبتين أو حاجتين أو أكثر من رغبات الفرد أو حاجاته¹.

¹ Danbury, Connecticut Gerolier Incorporated, (USA: The, Encyclopedia Americana International Edition, 1992) p 537.

المدلول الاصطلاحي للصراع

يعبر الصراع عن حالة التعارض الموجودة بين الأطراف في الأهداف والمصالح، فيعرف عندئذ على أنه وضع تكون فيه مجموعة معينة من الأفراد - سواء قبيلة أو مجموعة عرقية أو لغوية أو دينية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو أي شيء آخر - تنخرط في تعارض واع مع مجموعة أو مجموعات أخرى معينة لأن كل هذه المجموعات تسعى لتحقيق أهداف متناقضة فعلا أو تبدو أنها كذلك¹.

ظاهرة الصراع باعتبارها ظاهرة ذات أبعاد متناهية التعقيد، بالغة التشابك، يمثل وجودها أحد معالم الواقع الإنساني الثابتة، حيث تعود الخبرة البشرية بالصراع إلى نشأة الإنسان الأولى، حيث عرفت علاقاته في مستوياتها المختلفة فردية كانت أم جماعية، وأيضا في أبعادها المتنوعة نفسية أو ثقافية، سياسية أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو تاريخية وغيرها².

من خلال ما سبق نستنتج:

الصراعات تختلف قضاياها باختلاف المجتمعات، واختلاف بناها الاجتماعية، فهناك نماذج للصراع تكون قائمة على أفكار ثورية كالنموذج الماركسي نتيجة العوامل الاقتصادية، ونموذج الصراع البرجوازي عند (رالف داهرنديروف) و(لويس كروز)، الذي يأخذ المنحى السياسي في الصراع على القوة، و الصراع الثقافي عند (آلان توران) و (بيير بورديو) في سيطرة طبقات جديدة تكتسب ثقافة عالية، و الصراع الاجتماعي في عصر ابن

¹ داورني جيمس و بالتسغراف روبرت، النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية، ترجمة وليد عبد الحي (الكويت: كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، 1985) ص 14.

² حول تعقد مفهوم الصراع وتداخل أبعاده والمتغيرات المؤثرة فيه، أنظر:

David L. Sills, "International Encyclopedia of the Social Sciences, (Later refferd to as IESS) edited by, The Macmillan Company and the Free Press, 1968, Vol 3, pp.220-242.

خلدون كان في العمران البدوي بين العصبية القبلية من أجل المعاش، و في العمران الحضري تحول إلى صراع سياسي بين العصبية من أجل تحصيل الملك و الحكم، ما يؤكد أن طبيعة الصراع تنطلق من البنى الاجتماعية وطبيعة الأنساق السياسية والعلاقة بينها جميعا.

الصراع هو مظهر من مظاهر التفاعل الاجتماعي، وهو حتمية مرتبطة بالوجود

الإنساني، ولا تخلو منها أي علاقة تفاعلية وللصراع وظائف إيجابية:

- الحفاظ على الكيان الذاتي للجماعة و تعميق وعي الجماعة بهويتها المتميزة.
- ينهض الصراع بعوامل معنوية باعتباره صمام أمان للفرد و الجماعة من شأنه إفراغ شحنات الغضب و التوتر.

و لديه وظائف سلبية:

- هيمنة و سيطرة طرف على آخر.
- زيادة الضغط و التوتر و الحصر والقلق والكبت وتدني الشعور بالثقة.
- تدني مستوى الفعالية والفاعلية التنظيمية .

ثانيا: الهوية في المنطقة العربية، الواقع والتحديات

حرر هنا مضمون العنوان الرئيسي الثاني. حرر هنا مضمون العنوان الرئيسي الثاني. حرر هنا مضمون العنوان الرئيسي الثاني. حرر هنا مضمون العنوان الرئيسي الثاني. حرر هنا مضمون العنوان الرئيسي الثاني. حرر هنا مضمون العنوان الرئيسي الثاني. حرر هنا مضمون العنوان الرئيسي الثاني. حرر هنا مضمون العنوان الرئيسي الثاني. حرر هنا مضمون العنوان الرئيسي الثاني. حرر هنا مضمون العنوان الرئيسي الثاني.

تطرح إشكالية الهوية بقوة بالغة في الوسط الثقافي والاجتماعي للمجتمعات العربية، وتتحدد بالسؤال: هل هويتنا عربية إسلامية، محلية، وطنية، دينية، طائفية، مذهبية... وغيرها، في الوقت الذي يسير العالم إلى الحديث عن الهوية العالمية كهوية جديدة.

1. ملامح تصدع الهوية في المنطقة العربية

القول بوجود أزمة هوية في المنطقة تنطلق من رؤيتنا للواقع العربي وما يحدث في الساحة الثقافية والاجتماعية الراهنة، إذ توجد وجهات نظر متباينة كثيرة حول مسألة الهوية، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أننا في مواجهة هويات متعددة تشكل كل واحدة منها فضاء قائما بذاته، لا رابط بينه وبين الفضاءات الأخرى، وهذا يدفعنا ذلك إلى الاستنتاج بأننا نعاني أزمة هوية في الوطن العربي. فعوضا عن النظر إلى الهوية على أنها صنعتها الأحداث التاريخية القريبة والبعيدة، مثلما تصنعها الآن، وستظل تصنعها في المستقبل.

ينظر إلى الأمة على أنها أمة متجانسة مكونة من أصل واحد، ومن ثقافة مشتركة واحدة، أما ما يبدو من فوارق قائمة بين أبنائها، فليس سوى فوارق عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي وقد أدى هذا الإنكار للتمايز إلى أن أصبحت فكرة التنكر للذاتية الثقافية للجماعات المختلفة المكونة للجماعة القومية الواحدة هي أساس الممارسة السياسية في الوطن العربي، الأمر الذي أفضى عمليا إلى بناء السياسة العربية على غش متبادل، أي على خدعة تعكس في الواقع جو الحرب الكامنة في كل صراع سياسي عميق الجذور. الفكر تجاهل واقعة التعدد والاختلاف في المجتمع العربي، بدلا من النظر إلى انقسام هذا المجتمع إلى قبائل وعشائر وجماعات إثنية وأديان و مذاهب و طوائف واتحادات إقليمية مغلقة، وطبقات وفئات اجتماعية واقعة تاريخية يتعين البحث في عملية تجاوزها في إطار من

الوحدة التي تقبل بالتنوع داخلها، تراه يكتفي بتوجيه الإدانات الأخلاقية لها، دون القيام بدراسة علمية دقيقة لعملية تشكيلها، وكيفية تجاوزها¹.

يمكن عرض أزمة الهوية في المنطقة العربية من عرض رؤية الفكر العربي لبعض المعضلات التي يمكن أن نلمسها في واقع الحياة العربية:

معضلة العلاقة بين العروبة والإسلام؛ متمثلة في الخلاف المستمر حول أيهما الذي يحمل الآخر، العروبة أم الإسلام، الأمر الذي جعلها قابلة للانفجار في كل لحظة. معضلة أخرى تتعلق بآلية التعامل مع الهوية القطرية، ومع الدولة الوطنية* كمؤسسة قادرة على البقاء بالرغم من المشاكل التي تواجهها، إذ تمر الدول القطرية العربية المعاصرة، منذ أكثر من عقدين على الأقل، بأزمة يمكن أن نجملها في التفتت الداخلي، الاجتياح الأجنبي، الإفلاس المالي، التطرف الديني أو الطائفي، و فجوة متزايدة بين المجتمع والدولة، تكاد تصل إلى حد القطيعة الكاملة بين الشعب والنخب الحاكمة²، و قد غلبت سمة التنديد بالدولة القطرية، وإدانتها باعتبارها كيانا مصطنعا مأزوما منطلقه هو أن تأسس هذه الدول القطرية كان على أساس ثلاث هويات الهوية الوطنية، الهوية القومية و الهوية الدينية:

¹ حامد خليل، إشكالية الهوية في الفكر المعاصر، الفكر السياسي، عبر الموقع:

http://www.arabphilosophers.com/Arabic/adiscourse/aarabic/arabic_articles/Identity/A_Identity.htm,

تم تصفح الموقع بتاريخ (2015/05/18) ص 92.

* الدولة الوطنية هي نفسها الدولة القطرية لكن هناك من يفرق بينهما من خلال اعتبار الدولة القطرية هي دولة صغيرة في الوطن الكبير مثال حال سوريا و ليبيا اليوم لم يرقى إلى دولة وطنية هي محددة جغرافيا فقط، لا تتمتع بالسيادة الكاملة.

² ميشل شبيحه، إشكالية الدولة القطرية العربية المعاصرة، العدد الأول، المجلد 22 (سوريا: مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، 2006) ص 316.

- الدول التي اختارت الهوية الوطنية اصطدمت برغبة أعداد من مواطنيها في الانتماء و الالتحام في جامعة سياسية حضارية أوسع، مثل "الأمة العربية" أو "الأمة الإسلامية" كما اصطدمت بحقيقة ضيق مواردها لتنمية اقتصادها وبناء دولة حديثة مع الحفاظ على استقلالها واستقرارها في ظل تحولات إقليمية ودولية.
 - الدول التي اختارت الهوية القومية و هي الهوية العربية النهائية هي الأخرى اصطدمت بتكوينات عرقية و أثنىة غير عربية مستقرة في كيانها الداخلي.
 - الدول التي اختارت الهوية الإسلامية كهوية نهائية هي الأخرى اصطدمت بوجود أقليات دينية غير مسلمة يمس مشاعرهم.
- من هذا الطرح يتأكد قولنا بأن أزمة الهوية في المنطقة العربية هي أزمة صنعتها قرارات سياسية جعلت من مسألة الهوية المنطلق لبناء دولتها، بتحديد الهوية تحديدا نهائيا يتناقض و حقيقة تكون الهوية عبر المسار التاريخي للشعوب الذي هو الآخر تحكمه الأحداث و التحولات الحاصلة.
- حيث رغم أن الأغلبية الساحقة لسكان المنطقة العربية هم من العرب، لغة وثقافة، زهاء % 88 ، إلا أنه توجد فيه تكوينات أقلية من العرب غير المسلمين مثل المسيحيين وأبناء الديانات الأخرى أو من المسلمين غير العرب مثل الأكراد و الأمازيغ، أو من المسلمين العرب غير السنة مثل الشيعة و من مواطنين غير عرب وغير مسلمين مثل: قبائل جنوب السودان والأرمن¹.

¹ Ronald De McLaurin. ed, The Political Role of Minority Groups in the Middle East, (New York: Praeger, 1979), pp. 267-268.

2. الصراع الهوياتي و الحراك العربي

من خلال ما سبق يمكن التأكيد على فكرة أن الهوية في المنطقة العربية إنما هي أزمة ترجمها صراع، يمكن أن نسميه الصراع الهوياتي، إذ لم يكن التعامل مع هذه المسألة كجزئية أساسية في بناء الدولة في المنطقة العربية، لكن الانطلاق من سياسة الاختيار بين الهويات المتنافسة، ظهر هذا الصراع في هذه النقاط:

استبعاد أو اغتراب¹، بمعنى وجدت الأقليات المختلفة دينيا وعرقيا وطائفا إن صح وصفها، مستبعدة من المشروع الوطني الذي يقوم على هوية مشتركة، أو الشعور بالاغتراب في كيان سياسيا وجغرافيا ينتمي إليه. ما دفع بأفراد هذه التكوينات إلى الانسحاب والتفوق، أو إلى التمرد والعصيان، وفي كلتا الحالتين، لا يتوقع منهم ولاء لهذه الدولة وهويتها التي تنفي أو لا تعترف بهويتهم الخاصة في المجتمع نفسه.

هذا الطرح يقودنا إلى طرح آخر وهو الحراك العربي و علاقته بأزمة الهوية، حيث يمكن القول أن الحراك العربي أكد ما كنا نقوله عن الدول الوطنية التي عجزت عن احتضان التعددية الهوياتية للمجتمعات العربية، إذ كان من أبرز نتائج الحراك العربي عودة الجدل الحركات الإسلامية سواء فيما يتعلق بدورها في إشعال هذه الحركات، أو بمستقبلها السياسي أو الحركي خاصة في ظل الإقصاء الذي تعرضت له هذه الحركات طيلة العقود الخمسة الأخيرة، و مثال ذلك مصر، ففي عهد حسني مبارك تجنب تحديد هوية مصر السنية تفاديا لتصادم مع الشيعة، و لكن بعد وصول الإخوان المسلمين في مصر إلى السلطة تحولت مصر

¹ ميشيل شيحة، مرجع سبق ذكره، ص321.

إلى طرف في الصراع السني الشيعي، ففي خطاب كان ألقاه مرسي في قمة عدم الانحياز في طهران أوت 2012، حيث تضمنت كلمته الترضية على الخلفاء الراشدين، في سابقة من نوعها عند مقارنته بخطاباته السابقة، في إشارة إلى اختلافات مذهبية التي مع إيران، على نحو يؤشر إلى انجرارها إلى صراعات الهوية في المنطقة¹.

كما يبدو الواقع العربي اليوم، واقعا هو أقرب إن لم نقل صراعا طائفيا، ما يحدث في اليمن، و ما تسير إليه العلاقات بين السعودية وإيران و بدقة أكثر الصراع السني و الشيعي في المنطقة، يتحدث (توبي ماثينيس) عن هذه النقطة و يصف أن كلا من إيران و السعودية تستخدمان الدين للدفع بأهدافهما في المنطقة، و يفسر العودة إلى هذا النوع من الصراع بقوله " الشيء الذي يميز الطائفية الجديدة عن التوترات الطائفية في الحقب السابقة، هو أن الحكام يتخذون قرارات الآن بناء على تقييم طائفي للواقع السياسي ، إنهم يفكرون على المستوى الاستراتيجي و بناء على المنطلقات الطائفية، و يصوغون سياساتهم الخارجية استنادا على تلك المنطلقات².

3. الهوية و ظاهرة التطرف

نقطة أخرى مهمة تصب في علاقة الهوية بالتحويلات التي عرفتتها عديد الدول العربية، هي ظاهرة التطرف وهو ما سنقف عنده بنوع من التفصيل، لتأكيد أنه كنتيجة غذته

¹ إيمان رجب، حروب الهوية الصراع السني-الشيعي بالمنطقة بعد الحكم بإعدام الهاشمي (لبنان: 2012) ص4.

² توبي ماثينيس، الخليج الطائفي و الربيع العربي الذي لم يحدث، ترجمة أمين الأيوبي (لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2013) ص 20.

هشاشة الهوية التي صنعتها الأنظمة العربية ويعتبر واحدا من التهديدات المباشرة والمستمرة لمستقبل الشعوب العربية والمنطقة ككل.

التحول الذي عرفته عديد الدول العربية، يصعب تصنيفه بين الإيجاب والسلب، غير أنه يمثل لشعوبها مرحلة انتقال أو محاولة انتقال نحو تغيير واقع - يمكن وصفه بالمركزي - ساد لعقود طويلة، والحديث عن التحول الاستراتيجي في المنطقة العربية، هو حديث عن مستقبل أجيال رأت في الحراك العربي نقطة بداية للتغيير، غير أن هذا التحول لم يكن في مستوى تطلعات الشعوب العربية، حيث أفزر واقعا جديدا يجمع بين اللاستقرار واستمرار صراع متعدد الأطراف، وفي ظل أهداف الحراك العربي نشأت تهديدات جديدة تشجع على العنف والتطرف في المجتمعات العربية و باتت مسألة الهوية مصدرا لهذه التهديدات، ويمثل التطرف من المصادر الأساسية لتفكيك وتمزيق النسيج الاجتماعي، ومن أهم المنابع للعنف والإرهاب وتكريس آليات التخلف.

معرفة مفهوم التطرف يزيح الكثير من الغموض في علاقة الفكر المتطرف بواقع المنطقة العربية، و يوضح مدى تأثير الوضع السياسي والاجتماعي والأمني غير المستقر في تكوين الأفكار المتطرفة.

يشير مفهوم التطرف في اللغة إلى عدم التوسط، وهو يعني التشدد في الطرح والتشبث بالرأي والانغلاق الفكري، وعدم احترام الآخر وإلحاق الضرر به، يلصق المتطرف الصحة بأفكاره عن مختلف جوانب الحياة على نحو يخالف فكر أو مذهب أو سلوك ما أجمع عليه.

والتطرف ظاهرة لا تكاد تخلو منها المجتمعات، متخلفة أو متحضرة، وليست مختصة بدين معين أو جماعة معينة، فهي ظاهرة قديمة تواجدت في كل الدول والعصور، ارتبطت بالممارسات الخاطئة للدين، وتعلقت بالأقليات وكانت نتيجة لأساليب التمييز العنصري في التاريخ البشري، غير أنها أخذت منحاً و بعداً جديداً عندما ارتبطت بالعنف والإرهاب والعدوان.

وعليه لابد من التأكيد أن الفكر الغربي و في سعيه لإلصاق تهمة التطرف بالشباب العربي المتعلم وغير المتعلم، يعتبر في حد ذاته تطرفاً فكرياً، وتشير الدراسات إلى أن التطرف مرتبط بظروف البيئة المحيطة، ففي عام 1994 اعتبر الباحثون أن لجوء الشباب اللبناني إلى التطرف كان مرده الحرب الأهلية التي مرت بها لبنان، وهي نفس الظروف المحيطة بالشباب العربي اليوم من انقسامات وصراعات طائفية وعرقية، واستمرار الغرب في فرض مصالحهم بالقوة، سيقف كحاجز أمام محاولات ضبط العنف المتولد عن تفاقم التناقضات وانتشار الظلم والإذلال.

والتطرف على عكس ما هو متداول، هو سياسي، اجتماعي وفكري وليس بالضرورة دينياً، والشخص المتطرف ليس لديه إيديولوجية أو أفكار واضحة يدافع عنها وإنما تختص حياته ببعض المشكلات (السيكولوجية والاجتماعية) التي تدفعه للتطرف، غير أنه كثيراً ما ارتبط بالدين الإسلامي، وضروري الإيضاح أنه لم يرد مفهوم التطرف في الكتاب ولا في السنة بمفهوم اللفظ، ولكن ورد بمفهوم الغلو، وعليه فالتطرف ليس لديه أصول شرعية، وهو يختلف عن التدين حيث التدين بمعنى الالتزام بأحكام الدين والسير على منهجه، وهو

أمر مطلوب ومرغوب ويعود بالفلاح والخير على صاحبه ومجتمعه، وهو دليل على الفهم الصحيح للنصوص، والتطرف مرده الجهل بالدين*.

علاقة التطرف بالواقع العربي اليوم تبدو أكثر قابلية، بسبب ما يعيشه الشباب العربي من أوضاع اجتماعية واقتصادية تزيد فيها معدلات الفقر، البطالة والمرض، وتراجع فيها نسب التعلم أمام حركات هجرة ولجوء واسعة بحثا عن الاستقرار والأمن، وظروف أنسب للعيش وأكثر تحقيقا للعدالة الاجتماعية، وهروبا من استمرار الحروب وتجديدها بتعدد أطرافها، وعودة التواجد لقوى عسكرية غربية لأهداف أخرى أكدت صعوبة الخروج من دائرة الدمار، وفي ظل استمرار الغرب في فرض مصالحه سيحول هذا دون ضبط العنف المتولد عن التناقضات والتوترات.

وبالرغم من أن السلطة كانت المستهدف الأول لدول الحراك العربي أملا في استقرار سياسي متكامل، غير أن ما عليه اليوم هو توجه نحو منح آخر وإعلان عن حرب ضد الإرهاب، التي أصبحت الهدف الأساسي لكل الدول العربية وأحد الأولويات على حساب تحسين الأوضاع الاجتماعية، ما جعل الشباب يبحث عن الخلاص من هذه الأنظمة ولو باللجوء إلى الجماعات الإرهابية، التي استغلت اهتزاز شخصية الشباب وضعفها لتجنيدهم في صفوف هذه التنظيمات.

* يقول الله تعالى: "يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ" الآية 85 من سورة البقرة، وعن عبد الله بن مسعود قال صلى الله عليه وسلم "هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون" رواه مسلم، و المتنطعون هم الغالون المتعمقون المجاوزون في الحدود وفي أقوالهم وأفعالهم، و في هذا دعوة إلى التيسير و السماحة وعدم التشدد.

وأصبح تنظيم "داعش" بفكره المتطرف والخطأ عن الدين، يستخدم كل الوسائل والوسائط للتأثير على الشباب العربي، وجعله طرفا في حرب ضد بلده وشعبه، متحججين بإقامة دولة تحكم بما أنزل الله مستغلين نقص معرفة الشباب بدينهم وتفسيره، ما يؤكد أن صعوبة ظروف حياة المجتمعات العربية بعد ثورات مثلما حملت آمالهم حطمتها، وخلقت تلك البيئة لتعدد الآراء والمواقف والتعصب لها بنوع من العنف، ما ولد فكرا متطرفا حاولوا تغذيته بأي من الطرق ولو بتعاليم الدين بفهم خاطئ لها، وبالرغم من جهود الحكومات الجديدة لتجسيد مبادئ التغيير وتحسين الأوضاع بنفس الوتيرة مع محاربة الإرهاب، لكن لأن الشعوب العربية غير راضية ومازالت الشكوك تحوم - في جو من الخوف والترقب - حول قدرة هذه السلطات السياسية في التعامل مع هذه الأوضاع واحتواءها.

جانب آخر يساهم في تشجيع الفكر المتطرف في أوساط المجتمعات العربية، وهو العالم المفتوح بالوسائط التكنولوجية، حيث يوجد على الانترنت الآلاف من المواقع المتطرفة والمحرضة على الصراعات العرقية والطائفية، تتخذ من الغلو منهجا في كل أمر ولا تتيح فرصة للحوار مع الرأي المخالف بل تكفره، وتنزل الحوادث القديمة على الحوادث الجديدة دون مراعاة الزمان والمكان، وتسعى لخلق صور لمجتمعات وشخصيات مثالية تنتسب للفكر للمتطرف، تحاول من خلالها التأثير على الشباب واستدراجهم، مستغلة في ذلك مشاكل الأفراد وشعورهم بالوحدة والملل والقلق المستمر، والرغبة في الهروب والفصل في الصراعات الداخلية، وبالإضافة إلى الجماعات المتطرفة تستغل التنظيمات الإرهابية هذا الفضاء الإلكتروني، فعلى مستوى تنظيم داعش توجد هيئة إعلامية تسيطر على عدد كبير من المواقع و المنتديات الإلكترونية، التي تحتوي على مكتبة هائلة و واسعة تختص بالأيديولوجيا والخطاب

وآليات التجنيد، التمويل والتخفي والتكتيك القتالي، وصنع المتفجرات وكل ما يلزم الجهاديين، خاصة أمام عدم وجود علماء معتبرين بشكل تفاعلي على الانترنت يجذب الشباب من الفكر التطرفي و الصراع الهوياتي، وصعوبة التحكم في هذا النوع من الجرائم وعدم وضوح الاختصاص القضائي فيها وصعوبة وضع معايير محددة لتحديد المسؤول الأول والمباشر عن المحتوى التحريضي.

من خلال ما عرضناه يمكن أن نستنتج:

- أن التحولات الراهنة في المنطقة العربية إنما كشفت عن وجود أزمة هوية، تلخص في عدم وجود دولة وطنية تحتوي التعدد الإثني و العرقي و الديني.
- كنتيجة لحقيقة هذه الأزمة، بداية صراع هوياتي على نطاق أوسع تحكمه القيادات السياسية و تجهز له ترسانات عسكرية بمعنى إشكالية التعدد الهوياتي في المنطقة العربية تحول إلى حروب تحكمها طائفية و الاختلافات المذهبية.
- نمو الفكر التطرفي لدى الشعوب العربية، و التوجه من صراع طائفي و هوياتي إلى ممارسات إرهابية صعدت من التواجد الغربي في المنطقة العربية.
- إعلان الحرب على الإرهاب بعد 11 سبتمبر 2001، و ما تلاه من هجمات إرهابية عبر العالم، تمت المقاربة بين الإسلام والإرهاب، أخرج الهوية الإسلامية إلى صراع عالمي، وجعل الشعوب المسلمة تقف أمام مواجهة عالمية على حساب الهوية الإسلامية، وصل بهذا العداء إلى أراضيها و أمنها و استقرارها، و هو ما ذهب إلى قوله مُجَّد عابد الجابري "إن شعوب العالم العربي تحتاز اليوم ظروفًا صعبة، تواجه تحديات تهددها ليس

فقط في هويتها كشعوب تتطلع إلى تحقيق نهضتها و استقرارها، بل تواجه تحديات وأخطارا تهدد كثيرا من كيانها كوجود¹.

ثالثا: سبل تحقيق و تفعيل الاندماج الاجتماعي في المنطقة العربية وتجاوز الصراع الهوياتي

1. ضرورة التكيف و الاندماج الاجتماعي

تعدد التيارات وتناقضها في النظر إلى مسألة الهوية في المرحلة الراهنة، يمكن رده إلى عاملين أساسيين؛ عامل ذاتي ويتعلق بطبيعة النخبة التي تقود التيارات الأيديولوجية الحاكمة و المتحكمة، وآليات تفكيرها، وعامل موضوعي، يتعلق بطبيعة الوضعية العربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها القائمة في الوطن العربي.

لهذا فالحديث عن تحقيق الاندماج الاجتماعي هو حديث عن توفير مناخ لهذا الاندماج، و موضوع الاندماج الاجتماعي في المجتمعات العربية يعتبر من أكثر المواضيع تعقيدا، إذ يمكن أن نصف المنطقة العربية بأنها ممزقة قطريا، طائفيا، طبقيا، إثنيا، عشائريا، مذهبيا، من ناحية و ممزقة بين تيارات الحاضر و الماضي وضبابية المستقبل، و إذا وقفنا على الواقع فيمكن اختصاره في اللا استقرار و اللأمن وأرضية ملائمة للتواجد الأجنبي والجماعات الإرهابية.

من هنا يتأكد أن عملية الاندماج الاجتماعي إنما تحددها جهود جماعية و تحولات على رأس السلطات الحاكمة ما يجعل من الاندماج السياسي جزءا من الاندماج الاجتماعي،

¹ محمد عابد الجابري، الهوية العربية من صحيفة النبي إلى تفكك الخلافة، عبر موقع: <http://aljabri.150m.com>، تم تصفح الموقع بتاريخ (2015/05/18).

و هنا يطرح التساؤل هل فعلا الحراك الذي عرفته بعض الدول العربية إنما يؤسس لنظم أكثر استقرارية وديمقراطية، أم أنها تندرج ضمن مراحل الانفتاح السابقة المتسمة بالديمقراطية الشكلية وإعادة إنتاج التسلطية؟ ذلك أن الحكم بتصنيف هذه الحركات ضمن موجات التحول الديمقراطي يكون متسرعاً، وربما حال سوريا و ليبيا يبدو نموذجاً لهذه الصعوبات البالغة.

ولم يصبح الحديث عن تعدد طائفي أو اثني أو عرقي أو ديني، بقدر ما هو عن حديث عن انقسام طائفي عرقي، ديني، هذا ما يحول دون نضج الظروف لتحولات تسقط هذه الانقسامات كسياسة تمارسها النخبة الحاكمة¹، لهذا الحديث عن تحقيق الاندماج الاجتماعي يعتبر أساسياً لتجاوز الصراعات الداخلية خاصة تلك التي تقوم على أساس الهوية والاختلاف، و يمكن تفعيل سبل تحقيق الاندماج الاجتماعي من خلال:

- لابد من فهم الاندماج الاجتماعي كعملية، وكسيرورة، ينصهر فيها المواطنون في مجتمعاتهم، و يتساوون في التمثيل لقيمها و عاداتها وأنماط عيشها، و اكتساب هوية سياسية تعزز انتسابهم إلى المؤسسات الدولة دون إلغاء الهوية التعددية التي ينتمون إليها.

- لا يجب أن يكون المطلوب في عملية الاندماج الاجتماعي وإعادة اللحمة إلى المجتمعات العربية التي تمرّ بها الانقسامات المتعددة القائمة الآن، إلغاء أحد لا على صعيد الأقطار العربية، ولا على صعيد تعددية الأطراف داخل كل قطر، وإنما إيجاد القاعدة التي تجعل تلك الأطراف تعمل معا في سبيل هدف واحد، بدلا من أن تعمل كل واحدة منها

¹ عبد القادر عبد العالي، التغيير الجديد في الوطن العربي و فرص التحول الديمقراطي، التغيير في الوطن العربي أي حصيلة؟ (لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، 2013) ص 23.

ضد الأخرى و يحيد بعضها بعضا، وتستنزف طاقاتها الذاتية وقواها في تأكيد جزئياتها على حساب تأكيد وجودها وحقيقتها الكلي، أي أنه لا يجب أن يكون المطلوب القضاء على خصوصيات تلك الأطراف، وإنما الإبقاء على التنوع المنسجم الذي يضمن المشاركة من قبل جميع الجماعات في صنع المستقبل.

- التوجه إلى الواقع وقراءته قراءة متعمقة؛ بحيث تكون الفكرة التي يتم تبنيها هي فكرة ذلك الواقع، واستجابة دقيقة لمتطلبات دفعه باتجاه تحرره وتجاوز تحلفه من جهة، والارتقاء به إلى مستوى طموحات أبنائه من جهة أخرى، على أن يظل الاحتكام إلى ذلك الواقع هو الأساس للتمييز بين الأفكار في حال تصارعها، وليس إلى المرجعيات والقوالب الجاهزة والثابتة التي صيغت في زمان ومكان مختلفين وتم حفظها عن ظهر قلب ودونما استيعاب لها¹.

- النظر إلى الهوية ليس من موقع ما كانت عليه، وإنما من موقع ما نطمح أن تكونه، أي من موقع المسؤوليات التاريخية الحاضرة والمستقبلية التي يتعين علينا حملها، والوفاء بالتزاماته، وبهذا الصدد أنه من المفيد أكثر التحرر من النزعة الماضوية التي ننوء بحملها الآن، والتي تجرنا دون أن نشعر إلى الانخراط في صراعات الماضي ومشاكله، وإلى جعل حاضرننا مشغولا بمشاكل ماضينا، والأخطر من ذلك النظر إلى المستقبل بتوجيه من مشاكل الماضي والحاضر معا على حد تعبير الجابري.

¹ حامد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 95.

- يتأكد أن الاندماج الاجتماعي إنما هو اعتراف بحوية الآخر و احترامها و تقبلها و التحاور معها، و العيش معها، و حماية قيمة الهوية وضمائها يدخل في الوحدات الرئيسة لتحقيق الأمن المجتمعي، و لهذا حدد بوزان اثنين من التهديدات الرئيسية للأمن المجتمعي هما الهجرة والصدام بين الهويات المتنافسة¹.

2. خيار المواطنة على الصراع.

المواطنة هي الوعاء الذي يحضن الهوية و الخصوصيات الحضارية للمجتمعات، وقيام الدولة الحديثة على مبدأ المواطنة هو أكبر ضمان لاستقرارها وأمنها وتقدمها، حيث يشعر جميع أفراد المجتمع بأنهم متساوون في المكانة، وأن التفاعل والفرص التي يحصلون عليها هي نتيجة لعضويتهم في جماعة وطنية، وليست نتيجة لمكانة قبيلة أو مرتبة اجتماعية، ما يسهم في تشكيل شعور حقيقي بالانتماء إلى الوطن، لا يعبر عن شعور الوطنية الذي طالما ارتبط في الوطن العربي بشعارات و أصوات ترتفع مع الانتصارات الوطنية وتختفي مع أي تصدع أو فشل.

إذ المواطنة تعبر عن تجسيد لنوع من الشعب يكون فيه المواطنون يحترم كل فرد منهم الآخر ويتحلون بالتسامح تجاه التنوع الذي يزخر به المجتمع، و المواطن إن كان تعبر عن مجموعة من القوانين التي تحدد الحقوق و الواجبات في علاقة المواطن بالدولة، يبقى تجسيدها يتوقف على اعتبار و معاملة كل الذين يعتبرون بحكم الواقع أعضاء في المجتمع على قدم

¹ Clara andera, community security, letters from bosnia atheoretical analysis and application to the case of bosnia-herzegovina, peace conflict and development interdisciplinary journal. Vol7, july2005, p225.

مساواة بصرف النظر عن انتمائهم القومي أو الديني أو عرقهم أو ثقافتهم أو أي وجه من أوجه التنوع بين الأفراد.

وعرض المواطنة كضرورة للمجتمعات العربية لا يعني أنها لم تكن ضمن مشاريع الدولة الوطنية، لكن ميدانيا وعمليا كانت غائبا وضروري تفعيلها بإعادة بعث مفهومها المبني على أساس المواطنة الصالحة كمبدأ يتم توظيفه من أجل تطوير الحياة السياسية للوصول إلى حكم الديمقراطية، وذلك بالتأسيس لمواطنة وطنية تتماشى وخصوصيات المجموعات المكونة للمجتمعات، إذ أثبتت التجربة وشواهد التاريخ العربي المعاصر على إخفاق ظاهرة "استيراد" النموذج لشكل الدولة.

كما أن محاولات "التوفيق" بين نماذج سياسية جاهزة، ومؤسسات وليدة ظروف خاصة، ورغبة تكييفها مع الواقع العربي لم تنجح في تقديم الشكل المناسب للدولة، ولأداة الحكم، وإن النتيجة التي ترتبت على استيراد النموذج الدستوري وشكل الدولة هي المزيد من الارتباك والتخبط، إذ بنيت أشكال مهلهلة للدولة غير ثابتة في الزمان وغير مستقرة في الموضوع. واستتبع ذلك تقلبات في الأدوات البنيوية والمؤسسات السياسية.

بمعنى نجاح المواطنة كخيار لتجاوز الانقسامات الداخلية و احتواء التعدد الهوياتي كقيمة و قوة، يتوقف على مركزية دور الدولة ومسؤوليتها في إنجاح هذه السيرة أو إعاقته، إذ نجاح المواطنة كممارسة لا ترتبط بالمواطنين بقدر ما ترتبط بالحكومات، إذ هذا الفشل هو نتيجة لفعل تاريخ طويل من تعطل لغة الحوار بين الأفراد في كل ميدان من ميادين حياتهم بدءا من الأسرة وانتهاء بأعلى مؤسسة رسمية أو غير رسمية، مروراً بكافة الهيئات القائمة من تعليمية أو دينية أو وظيفية أو إنتاجية إلى آخر ما هنالك من هيئات.

تعتبر المواطنة والولاء للوطن من أهم الحلول و أكثرها قدرة على تجاوز الصراعات الهوياتية في الوطن العربي، والتي توسعت دائرتها في ظل التوترات الأمنية الراهنة، والتي أصبحت أيضا هدفا تسعى لتحقيقه جهات ترى مصالحها في المنطقة، وهي الطريقة لإعادة بناء الهدوء الفكري للشباب للحد من مظاهر صراع التيارات الفكرية والانقسام، غير أن الولاء للوطن و للدولة كجهة سياسية يتأسس عليها بناء ظروف أفضل للمجتمع، يتوقف على طبيعة الثقة القائمة بين المواطنين والسلطة وهذا ما فشلت فيه الحكومات العربية في مشاريعها الوطنية

و في هذا السياق، تقول حكمة صينية أن حوارا دار بين الفيلسوف كونفوشيوس* وأحد تلاميذه يدعى "تسي كوغ" حوارا عن السياسة .

قال الفيلسوف: على السياسية أن تؤمن بثلاثة أشياء

- لقمة العيش الكافية لكل فرد.
- القدر الكافي من التجهيزات العسكرية.
- القدر الكافي من ثقة الناس بحكامهم.

سأل التلميذ: "و إن كان لابد من الاستغناء عن أحد هذه الأشياء الثلاثة بأيها نضحي؟"

قال الفيلسوف: "التجهيزات العسكرية".

* فيلوف صيني (555/479 قبل الميلاد)، كان لتعاليم وأفكاره الأثر الكبير في تاريخ الحضارة الصينية حتى العصر الحديث

سأل التلميذ: "و إذا كان لابد أن نستغني عن أحد الشيئين الباقيين فبأيهما
نضحي؟"

أجاب الفيلسوف: "في هذه الحالة نستغني عن القوت لأن الموت كان دائما مصير
الناس، و لكنهم إذا فقدوا الثقة لم يبقى أي أساس للدولة" و هذا ما يحتاجه الوطن العربي
الثقة بين الحاكم و المحكومين.

الخلاصة :

إن الهوية ليست قانونا ثابتا جاهزا ونهائيا، إنما هي مشروع متطور و مفتوح على
المستقبل ومتشابك مع الواقع والتاريخ، وفضلا عن هذا هي ليست أحادية البنية أي لا
تشكل من عنصر واحد هو عنصر الدين أو الطبقي أو الإثني أو المذهبي وحده، بل هي
تفاعل هذه العناصر جميعا دون إغفال بروز أو هيمنة أحد هذه العناصر في مراحل معينة من
التطور أو الهبوط والتراجع.

وقد مرت المنطقة العربية خلال تاريخها بنهوض وسقوط و انقطاع حالها حال الأمم
الأخرى، لهذا هويتها إنما هي هذا المسار الطويل، و الذي لا يمكن أن تكون إلا في إطاره،
والحديث عن وجود أزمة هوية في المنطقة العربية كسبب لما هو واقع اليوم، لا يعتبر طرح
مؤسسا لأن السبب الواقعي هو فشل الحكومات العربية في مواجهة التحديات الحقيقية
الداخلية والخارجية الراهنة وهو الذي أفضى بدوره إلى تذرر المجتمع العربي على النحو الذي
يبدو فيه وكأنه "مجموعات" ذات هويات مختلفة، وليس مجتمعا تشكل الهوية لحمته وسداه.

إن إحياء المشروع الوطني لكل قطر عربي هو الخيار المستقبلي الأكثر واقعية، الذي لا بديل عنه إلا الحروب الأهلية والصراعات الطائفية والعرقية، ومن دونه لا يمكن تصور إمكانية تحقيق الوحدة القومية بين أقطار أخفقت في تحقيق وحدتها الوطنية ولم ينضج مشروعها الوطني نضجا طبيعيا ليصبح لبنة أساسية في أي بناء عربي مشترك يقبله العرب على أساس التعاقد الحر واحترام الخصوصيات الوطنية القطرية لكل دولة عربية.